في الادب الفرنسي

الدوق دى لاروشفوكو

La Rochefoucauld

للدكتور حسن صادق

كتب أديب فاضل فى عدد الرسالة الغراء رقم (٤٠) يقول إن السبب الأول فى سقوط روايات كورنى الاخيرة يرجع إلى غلو هذا الشاعر « فى مبدئه الذى يعنى بتصوير الاشخاص كما يجب أن يكونوا ، فجاءت شخصيات قصصه الأخيرة خارجة عن حدود المعقول » ، لاالى اضمحلال قواه الذهنية من أثر الهرم كما ذكرت فى مقالى عن هذا الشاعر العظيم . وأعتقد أنى محق فيما ذهبت اليه لأن كورنى قال عن نفسه بعد فشل قصصه الأخيرة « شعرى ذهب مع اسنانى » ، ولأن شخصيات قصصه الأولى الخالدة كالسيد وهوراس وسنا تعلو على الضعف الانسانى وعلى الرغم من ذلك أبلغت الشاعر قمة المجد وأكسبته لقب : كورنى العظيم

ثم قال الأديب الفاضل ان كلمات فولتير : « الشرح الوحيد لكتب كورنى يجب أن يكون بكتابة هذه الكلمات فى أسفل كل صحيفة ! جميل . جليل . إلا هى ! » ، على ماجاء فى كتب الآداب الفرنسية ، قيلت فى راسين لا فى كورنى . وأصر على أن فولتير الذى عرف بالبخل الشديد دفعه اعجابه بكورنى الى أن يقبل ابنة اخته ويزودها بمهر ثم يزوجها . ولم يكفه هذا بل نشر كتبه وشرحها إمعانا فى اظهار إعجابه بالشاعر الأكبر ، وكتب فى مقدمة شرحه تلك الكلمات . وأرجو من الاديب الفاضل أن يتفضل بارشادى الى كتب الأدب التى ذكرت أن فولتير قال تلك الكلمات فى راسين لا فى كورنى وله منى وافر الشكر

والآن نتحدث عن الدوق دى لاروشفوكو الذى شغل أذهان الناس فى عصره وأقلام الكتاب والنقاد فى العصور التالية . ولم يخرج هذا الرجل للناس من الآثار الأدبية غير مذكراته شأن أمثاله النبلاء الاغنياء ، وكتاب صغير الحجم عنوانه : « مواعظ أو تأملات وأحكام أخلاقية » جمع فيه كل آرائه فى العواطف الانسانية ، بعد أن خيبت الحياة آماله ودكت احداث الزمن صروح أحلامه ، وذهبت الحقيقة المريرة بأوهام طموحه ، فجاءت هذه الآراء معتمة حزينة تلقى على عواطف الانسان رداء من الشك الأليم وتظهرها فى صورة بشعة مخوفة ، وهى تتلخص فى كلمتين : فلسفة الأثرة . وهذه الفلسفة هى التى حركت الاقلام وأثارت المناقشة ، وألفت باسم صاحبها إلى الاجيال فى إطار الخلود

ولا يستطيع الانسان أن يفهم « مواعظ » هذا الكاتب إلا إذا درس حياته وعرف الحوادث التى اشترك فيها ، وتركت فى نفسه أثرا عميقا . وهذا السبب سيدعونا الى الاطالة والتفصيل . وسنقسم حياته إلى أدوار ثلاثة : دور الشاب الخيالى ، ودور الرجل الطموح ، ودور الشيخ الفيلسوف

الشاب الخيالى

ولد فرنسوا السادس دوق دى لاروشفوكو بباريس (شارع بتى شان) فى ١٥ سبتمبر عام ١٦١٣ . وهو من أسرة عريقة لها تاريخ حربى مجيد ، وتملك ثروة طائلة فى (بواتو وانجوموا) ، ومقام آل روشفوكو يلى مباشرة مقام أمراء البيت الملكى . وقد كتب فى عام ١٦٤٨ إلى الوزير مازاران يقول : « أستطيع أن أقول وأثبت أن ملوك فرنسا منذ ثلاثمائة سنة يعاملوننا معاملة ذوى الرحم ، ولا يجدون فى ذلك عيبا ولا بأسا ، وهذا يدل على مبلغ اعتزازه بأسرته واعتداده بأرومته

ولما حان وقت تعلمه ، أخذ منه فى الريف قسطا ضئيلا ، إذ اتجهت عناية أهله إلى التمرينات الجسدية ليجعلوه من حملة السيف شأن أبناء النبلاء فى ذلك العصر . ثم زوجوه وهو فى الخامسة عشرة من عمره من فتاة ولدت فى حجر صالح ونشأت فى خير جزيل ، هى (أندريه دى فيفون) . وقد قال فى كبره : « يوجد زواج طيب ، ولكن لايوجد زواج عذب شهى » . ومالبث بعد زواجه أن اتبع هذا الرأى قبل أن يقوله ، وبحث خارج بيته عن ضروب اللذة التى لاتهيئها العيشة الزوجية . وتناهت أخباره إلى امرأته ، ولكنها صانت عفتها ، ولم يتألفها العبث من نفرتها . وأنجبت له أولادا ثمانية

ثم خاض أول معركة حربية فى إيطاليا وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ولما عاد منها دخل البلاط الملكى . وكان الفن السائد

فيه كما قال فولتير ، هو تدبير الدسائس لقهر الوزير الكبير الكاردينال ريشليو . فاستدرج هذا الفن فرنسوا ودفعه إلى أحضان النبلاء الذين كانوا يثنون من سلطان الوزير ويأتمرون به فى كل حين . ورأى بعينيه سطوة الوزير وأنواع العذاب الذى ينزله بهؤلاء النبلاء ليخضعهم للقانون العام ، ولكنه لم يجبن ولم يرجع عن سبيله

وكان فى ذلك الوقت كثير الكبرياء ، طموحا بلا غرض معين ، حى الذهن ، دقيق الملاحظة ، خجولا كلفا بالخيال ، شديد الميل إلى مجالس النساء . وقد لازمه هذا الميل طيلة عمره . وعقب دخوله البلاط اتصل بأحب فتيات الملكة (آن دوتريش) إليها ، وهى الآنسة دى هوتفور التى يحبها الملك لويس الثالث عشر حبا أفلاطونيا . وهذه الصلة عبدت له الطريق إلى اكتساب ثقة الملكة البائسة المضطهدة من جراء الريبة فى نيتها وأغراضها . وقد سببت لهذه الثقة ضررا كبيرا ، كما ذكر فى مذكراته : « أسباب أتفه من هذه كانت كافية لأن تبهر نظر رجل لم يسير غور الحياة ، وتدفعه فى سبيل ضارة بمصلحته ، وقد جلب على هذا السلوك غضب الملك والكاردينال ريشليه ، وسلسلة طويلة من المحن أدخلت الاضطراب على حياتى »

وفى عام ١٦٣٣ سافر مختارا مع بعض شبان الطبقة العالية إلى محاربة الأسبان فى الفلاندر ، وأظهر فى ساحة القتال من ضروب البسالة والاقدام ما أثار الاعجاب . ولما عاد من الحرب ، أمر بمغادرة باريس والاقامة فى أملاك أبيه ، لأنه اتهم ظلما بأنه أفشى جميع مادار فى الموقعة . ولكنه أدرك ان الملك أصدر هذا الأمر انتقاما منه لصلته بالملكة والقهرمانة دى هوتفور

حرم عليه دخول الحاضرة أربعة أعوام . وهيأت له المصادفة التعسة أثناء ذلك مقابلة الدوقة دى شفريز ، شيطانة الدسيسة كما سماها سانت بيف ، وعقد أواصر الصداقة معها . وقد وصفها الكاردينال دى رتز (١) بأنها « كانت تحوك الدسائس ، لأنها جاءت فى عصر الخداع والختل . ثم اتصلت بالدوق بوكنجهام والكونت دى هولاندفدفعاها فى هذه السبيل ، فاستفادت لأنها كانت تفعل كل ما يسر حبيبها . وكانت دائمة الوفاء للغرام ، كثيرة التغير لموضوعه . وإنى لم أر إنسانا اقل اكتراثا للاخطار ، ولا امرأة أكثر احتقارا للواجب منها . ما عرفت فى حياتها غير واجب واحد : هو أن تحصل على إعجاب صاحبها بها »

وكان ريشليو قد أبعدها الى (داميير) حتى يقطع الصلة التى بينها وبين الملكة ؛ ولكنها كانت تأتى لزيارتها خفية ، وتمهدلها طريق الاجتماع بالدوق بوكنجهام الانجليزى فى حديقة اللوفر . وعرف ريشليو هذه الأخبار فأبعد الدوقة الى التورين ، وهناك قابلت لاروشفوكو ، واستطاعت بدهائها أن تستخدمه رسولا بينها وبين الملكة . ولم تقف عند هذا الحد ، بل نظمت مراسلة سرية خطرة بين ملكة فرنسا وملك أسبانيا . وعرف ذلك الوزير الساهر على مصلحة بلاده ، فأوعز إلى الملك ان يطلق زوجه ويخرجها من الأرض الفرنسية

ولما شعرت الملكة بعزم الكردينال ، استدعت لاروشفوكو وتقدمت إليه ان يسهل لها طريق الهرب إلى بروكسل . وهو يقول فى مذكراته عن هذه الحادثة : « لما وقعت فى هذا المأزق لم تجد وفيالها غيرى وقهرماتها الآنسة دى هوتفور ، فعرضت على أن أختطفهما وأذهب بهما الى بروكسل . وقد بعثت أخطار هذا العمل والصعاب التى تقوم فى وجه انفاذه سرورا كبيرا فى دخيلتى . كنت فى سن تحبب إلى الانسان أن يأتى أعمالا خارقة ذات دوى عظيم . ولم أجد عملا يرضى هذه السن أكثر من اختطاف ملكة من زوجها ، وفتاة من ملك يهواها »

ولكن ريشليو أحبط هذه الخطة ، وآلم الملكة جد الالم . وخافت الدوقة دى شفريز بطش الوزير فاعتزمت الهرب . وكانت تجيد ركوب الخيل ، فغادرت مدينة (تور) فى زى رجل ، ومعها خادمان وكان ذلك فى السادس من شهر سبتمبر عام ١٦٣٧ . ولما صارت على مسيرة فرسخ من (فرتى) التى التجأ اليها لاروشفوكو ، أرسلت اليه تقول إنها رجل من النبلاء اضطر إلى الهرب عقب مبارزة ، وتسأله أن يرسل اليها عربة مقفلة وبعض خدم . وما أن ألقى على الرسالة نظره حتى عرف خطها ، ولكنه لم يستطع الذهاب إليها لأن ضيوفه أرادوا أن يصحبوه . وأرسل اليها فى الحال ما طلبت ، فسارت آمنة حتى بلغت حدود أسبانيا . ثم أرسلت اليه جميع حليها

---

(١) ١٦١٣ ـ ١٦٧٩ . قسيس فرنسى مستهتر اشترك فى دسائس البلاط أيام الملك لويس الثالث عشر ، وانتبع ثبات الطرق حتى حصل على رتبة كاردينال ومنصب أسقف باريس . وسجنه عدوه مازاران فى الباستيل ، فهرب منه وهام على وجهه فى أنحاء أوربا وقتا طويلا . ولما استطاع العودة الى باريس عاش فيها عيشة الهدوء والعزلة . وخلد ذكره يرجع الى مذكراته المشهورة التى نشرت فى عام ١٧١٧ والتى دلت على علو كعبه فى الكتابة ودقة الملاحظة وسحر التصوير

وقيمتها ... و ٢٠٠ دينار راجية منه أن يقبلها منها هدية إذا قضت نحبها ، أو يردها إليها فى أحد الايام اذا قدر لها أن تعود إلى بلادها

وقد ذكر مسألة الحلى فى مذكراته للدلالة على الثقة التى يلهمها وفاؤه ، مع انه ينكر فى كتاب « مواعظه » الثقة النقية الخالصة ويقول : « ليس لنا أن نفخر با كتساب ثقة هى دائما مشوبة بالغرض » ، وذكر أمامه أحد أصدقائه جاك إسبريه (١) هذه الحادثة وقال يداعب صديقه فى شيخوخته : « مما يثير العجب أن يفخر انسان بأن أميرة لجأت اليه ووضعت بين يديه حياتها وحريتها ، مع أنها لم تفعل ذلك الا خشية الوقوع فى يد العدالة ، وأن يفخر بأن هذه الأميرة ائتمنته على حليها الثمينة وهى خارجة من وطنها ، مع انه لم تفعل ذلك الا فى سبيل مصلحتها الذاتية ، أى حرصا على مالها وخوفا عليه من السرقة فى الطريق ! » وهذا رد ساخر على كتاب لاروشفوكو الذى يرجع كل العواطف الانسانية الى مصدر واحد هو : المصلحة الذاتية أو الأثرة

ثم عرف ريشليو أن لاروشفوكو ساعد الدوقة على الهرب فاستقدمه اليه وأنبه . ولما رأى منه غلظة فى الاجابة على أسئلته ، أرسله الى سجن الباستيل ، ولكنه أمر مدير السجن بأن يتلطف فى معاملته ويسمح له بالاستراحة على الشرف كل يوم . وبعد مرور ثمانية أيام على سجنه ، أطلق سراحه فحمد الله على خروجه بعد هذه المدة الوجيزة فى عهد يحرص الباستيل فيه على حرفائه ، وأنساه شعوره برضى الملكة وقهرمانتها والدوقة عن عمله ، مرارة السجن وقسوته .

وعقيب ارتداد حربه أمر بمغادرة باريس والاقامة فى (فرتى) وهناك جاءه رسول من الدوقة وتسلم منه حليها ، وعاش فى ذلك الريف عامين هادئاً مطمئنا ، وأصبح بيته ملتقى النبلاء والعظماء . وقد ذكر هذا العهد فى مذكراته فقال « كنت شابا فى ذلك الوقت ، وكان الملك ووزيره يدنوان رويداً من القبر ، فرجوت أن أحصل على خير كثير بعد موتهما وتغير الحال . وكنت سعيداً فى اسرتى ، أحظى بكل مسرات الريف وأجتوى كثيراً من النبلاء الأغنياء المغضوب عليهم من الوزير ، لهم مثل أمانى وآمالى » . وهنا يظهر الرجل الطموح فى ثوب الشفيق على ملكة تعسة .

ولما دارت رحى الحرب فى (البلاد الواطئة) ، سمح له بالانضمام إلى الجيش بعد طول إلحاحه ، وأبلى بلاء حسنا فى موقعتى سان نيقولا وسان فينان . وعرض عليه ريشليو رتبة سامية مكافأة له على بسالته فرفض إذعانا لأمر الملكة ، إذ كان فى نيتها أن تجنبه قيد الوزير حتى يستطيع أن يسل سيفه فى وجهه لما تمكنها الظروف من إشهار عداوتها له .

يتبع

حسن صادق

(١) ١٦١١ — ١٦٧٨ . كاتب فرنسى مجيد كان معاصرا لدى لاروشوكو وصديقا له وانتخب عضوا فى مجمع الملا نعام ١٦٣٩ . وأشهر مؤلفاته كتاب عنوانه « شوائب الفضائل الانسانية » الذى يعتبر شرحا وتعقيبا لمواعظ لاروشفوكو